حوادث يصعب تعليلها

في الولايات المتحدة الاميركية جمعية للمباحث النفسية لها لجنة للبحث في هذا الموضوع رئيسها الدكتور ولتر فرنكلين برنس وهو ايضاً من اعضاء اللجنة التي عُيِّنت لامتحان الذين تقدموا لاخذ جائزة السينتفك اميركان كما ترى في الصفحة ٥١٤ من مقتطف دسمبر الماضي وقد ذكر رأيهُ على الصفحة ٥١٥ وخلاصتهُ ان الاعمال التي عملها الوسطاء الذين امتحنوهم لم يثبت منها انها عُملت بقوى غير عادية

الاَّ انهُ كتب مقالة مسهبة في عدد دسمبر من مجلة السينتفك اميركان جعل عنوانها «حوادث لا استطيع تعليلها» ذكر فيها اموراً جرت لهُ وتعذر عليهِ تفسيرها وذلك بعد مقدمة طويلة ابان فيها انهُ دُفع الى البحث في البرتزم لنقض دعاوي اصحابهِ لا لاثباتها فرأى فيها ما اقنعهُ بصحة بعضها او بانهُ لا يمكن ردها الى الغش ولا الى علة طبيعية معروفة من ذلك انهُ سكن في ٢٦ بيتاً مختلفاً الواحد بعد الآخر فلم يسمع فيها شيئاً غير عادي ولما انتقل بزوجتهِ وابنتهِ الى البيت السابع والعشرين جعلوا يسمعون فيهِ اصوات قرع او نقر نهاراً وليلاً ولم يستطيعوا ان يكتشفوا لها سبباً قال « وكانت هذه الاصوات تسمع نهاراً وليلاً واكثرها ليلاً في الطبقة العليا من البيت وفي السفلى في النور وفي الظلمة سواء كان واحد منا فقط في البيت او اثنان او ثلاثتنا فاننا كنا نسمع القرع احياناً من البيانو واحياناً من مائدة صغيرة قائمة الى جانب سريري قرب رأسي . وكنا نسمعهُ احياناً في غرف مختلفة في وقت واحد تقريباً . . وبعد بضعة اسابيع صرت اسمع القرع في مكتبي ويسمعهُ بعض النفسيين الذين كانوا يزورونني ويحسبون انهُ صادر من خزانة الكتب . وبعد قليل زال من البيت ومن المكتب ايضاً ثم عاد قليلاً وانقطع بعد ذلك تماماً

وفي الحادي عشر من اغسطس سنة ١٩٢٠ جلست مع السيدة التي اتخذتها سكرتيراً لي وسيدة اخرى ووضعنا ايدينا على مائدة ثقيلة في مكتبي . وهذه اول مرة جلستا فيها حول مائدة لهذا الغرض وكان النور الكهربائي ساطعاً في الغرفة وللحال جعلنا نسمع قرعاً على المائدة وكنت استطيع ان ارى ما تحتها ايضاً فلم ارَ ما يستدل منهُ على ان الصوت نتج من انقباض في عضلات السيدتين. ثم جعل القرع

يحدث اجابةً لطلبي ومن المكان الذي اخبرتهُ لهُ وانتهى الامر بان ارتفع جانب من المائدة عن الارض ثم هبط وانا ارى ارجل السيدتين ولا ارى فيها حركة . وطلبت منهما ان ترفعا جانباً من المائدة بعد ذلك بارجلهما فلم تستطيعا

ومن الامور التي لا استطيع تعليلها استنتاج الوسيطة نتائج مرتبطة بشيء تراهُ او تلمسهُ مثال ذلك انني اعطيت وسيطة كتاباً مقفلاً لا تستطيع ان ترى كلمة فيهِ وكنت اعرف كاتبهُ. فامسكتهُ وتولتها الغيبوبة فوصفت الكاتب بانهُ رجل يلقي خطباً على التلاميذ وعلى الجمهور واشارت بيدها مقلدةً اشاراتهِ وقالت انهُ في مدينة كبيرة ووصفتها وصفاً ينطبق على مدينة بوستن ثم وصفت مدينة اخرى وصفاً ينطبق على نيوهافن ثم كنيسة طويلة ضيقة قديمة مبنية بالحجر لها برج فيهِ ساعة وكوى زجاجها ملوّن ومقبرة الى عين الكنيسة وحجارة كل القبور التي فيها مستوية ليس فيها شاهد قائم . وكل ما وصفتهُ صحيح وكان الكاتب قسًّا وهي لا تعرفهُ ولا سكنت المدينة التي فيها تلك الكنيسة وما من مقبرة خالية من الشواهد القائمة غير تلك المقبرة فكأنها رأت بعين نفسها ما في الكتاب وما لهُ علاقة بكاتبهِ

ومن هذه الغرائب صدق الخيالات مثال ذلك ان امرأة في نيوجرزي خُيِّل اليها ذات يوم انها ترى اباها واخاها معاً وكان ابوها ميتاً واخوها في الحرب فاخبرت بذلك امها واختها وبعد ما رجع اخوها من الحرب اخبر عما صادفهُ فيها من ذلك انهُ التفت يوماً فرأى تريبداً يدنو من سفينتهِ ثم رأى اباهُ واقفاً الى جانبهِ . وماخيل اليهِ وما خيل الى اختهِ كانا في يوم واحد ويكادان يكونان في ساعة واحدة

ومنها صدق الاحلام او سبق التحذير من ذلك انني حلمتُ يوماً انني ارى امرأة وفي يدها امر بتتلها مكتوب بحبر احمر كالدم فقالت لي انني لا اخشى الموت ولكن ألا تمسك يدي فقبضتُ على يدي وحينئذٍ لطفأ النور وحتلكَ الظلام ثم شعرت ان رأسها فارق بدنها وعلى شعرهِ دم وفتحت فاها واقفلتهُ مراراً على يدي دلالة على ان رأسها لم يزل حيًّا وللحال استيقظتُ وقصصت الحلم على اثنين وعندي شهادة منهما بذلك وبعد يومين قرأت في الجرائد ان امرأة مختلة الشعور اختفت من بيتها في نيويورك قبلما حلمت بها ببضع ساعات . وبعد حلمي بنحو اربع وعشرين ساعة وضعت رقبتها على شريط سكة الحديد في مكان يبعد عن بيتها نحو ستة اميال وذلك عند منتصف الليل فقطعتهُ القاطرة كما يقال . واسم هذه المرأة هنسد (اي يد)

ووجد في جيبها كتاب تقول فيه ان رأسها سيبقى حيًّا بعد قطعه

وذكر حادثاً آخر من هذا القبيل قال في الثامن من يناير سنة ١٩٠٢ كان قطار واقفاً في سرب بنيويورك ومؤخرهُ بارز من السرب فجاء قطار آخر وصدمهُ فكسرهُ وقُتل كثيرون من الركاب بين كسرهُ فأتى الناس وقطعوا الكسر ليخلصوا من يمكن تخليصهُ وحينئذٍ افلت البخار الساخن وزاد في عدد القتلى . وقبل حدوث هذه الحادثة باربع ساعات حلمت حلماً ينطبق على ما حدث تماماً فارتعبت الى الدرجة القصوى وايقظتني امرأتي حينئذٍ فاستيقظت وصراخ الجرحى يرنُّ في اذني وكذلك صوت البخار ولا ازال اتذكر ذلك كأنهُ حدث اليوم . انتهى

***

كنا نسمع القراء يطالبوننا بتعليل ذلك بعد ان عجز عن تعليله رجل خبير قضى عمرهُ يبحث في هذه المواضيع حتى انتُخب رئيساً للجنة البحث في الامور النفسية واختارتهُ مجلة السينتفك اميركان حكماً في اعمال الوسطاء الذين يدعون مناجاة الارواح وما يتصل بها. فنجيب ان هنا امرين اساسيين لا يمكن اغفالهما الاول انهُ لما امتُحن الوسطاء عند السينتفك اميركان في احوال لا يستطيعون الخداع فيها من غير ان يكشف خداعهم لم يجد هذا الرجل نقصاً في كل اعمالهم شيئاً لا يمكن تعليلهُ . والثاني اننا اذا رأينا عملاً يمكن تعليلهُ بفرض معقول لا نلجأ الى تعليله بفرض غير معقول ولو لم يقم دليل قاطع على ان الفرض المعقول هو الفرض الحقيقي

فالحادثة الاولى التي ذكرها اي اصوات القرع او النقر التي سمعها في البيت السابع والعشرين من البيوت التي سكنها ناتجة من نوع من السوس ينخر الخشب ويسمع لهُ مثل هذا الصوت ولاسيما ليلاً وقد وقع لنا شيء من ذلك في بيت كنا نسكنهُ ويتقطع الصوت احياناً زمناً ثم يعود لان حياة الحشرات ادوار تسكن فيها او تموت وتخلفها اولادها

والقرع على المائدة امر يصحُّ ان يقال فيه ما قالهُ البدوي في ناقة

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

وتعليلهُ ان بعض الناس يستطيعون ان يسمعوك صوت القرع بتحريك مفاصلهم

وتقرها . وارتفاع وجلي للمائدة يفعله بعض الذين يضعون ايديهم عليها عن قصد او عن غير قصد. وقد حاولوا غير مرة ان يجعلوها ترتفع كذلك ونحن واضعون يدينا عليها فقاومناهم اي ضغطنا نحن ايضاً عليها على جانبنا كما ضغطوا هم على الجانب الآخر فلم ترتفع ولولا ذلك لارتفعت

وعمل الوسيطة التي قرأت ما في الكتاب وما يتعلّق به وهي لا تعرف كاتبهُ ولا قرأتهُ إما ان يُعلَّل بانها تعرف الغيب وهو تعليل غير معقول او بأن الدكتور برانس من الذين اذا عرفوا شيئاً فقد حفظ معرفتهُ في عقلهم الباطن فلا يشعرون بها فاذا سمعوا شخصاً يشير اليه ولو اشارة طفيفة انتبهوا الى ما في عقلهم الباطن واستجلوهُ فيخيَّل اليهم ان ذلك الشخص سردهُ على مسامعهم .وهذا تعليل معقول وقد يكون التعليل الصحيح هنا اي ان كل ما ذكرهُ عن ذلك القس كان مخزوناً في ذاكرته ولكن لم يكن منتبهاً لهُ ولما تكلمت المرأة فرأى في كلامها ما نبههُ اليه فانتبه وحسب انهُ سمعهُ منها

ورؤية الجندي اباهُ واقفاً الى جانبه يمكن تعليلها بانهُ سمع اختهُ تقص عليه ما خيل اليها تخيّل اليه حينئذٍ انهُ هو ايضاً رأى اباهُ

ولنحلم بالمرأة التي انتحرت امثلة كثيرة لم يقوَ مثال منها على الثبوت في هذا العصر . فان كثيرين يقولون انهم حلموا بحادثة قبل حدوثها ثم يظهر لدى البحث انها حدثت قبلما حلموا فسمعوا بها وهم غير منتبهين فحفظت في ذهنهم الباطن وتذكروها وهم نيام . وذكر انتحار هذه المرأة في يوم كذا ليس دليلاً قاطعاً على ان الانتحار حدث ذلك اليوم . ومن هذا القبيل حلمهُ باصطدام القطار فان تعليلهُ بان الحلم وقع بعد الحادثة اقرب الى المعقول من فرض معرفة الغيب

بقي اننا اشرنا غير مرة الى فرض يمكن ان تعلل به معرفة الغيب اذا ثبتت هذه المعرفة وهو انتفاء الزمن لدى بعض العقول فاذا انتفى كما يقول البعض صارت الحوادث كلها تبسط امام تلك العقول ماضيها وحاضرها ومستقبلها فتراها معاً في وقت واحد .ولكن معرفة الناس للغيب لم تثبت حتى الآن فلا موجب لهذا الفرض وهذا لا ينفي معرفة المجهولات بالاستدلال المنطقي